إنجيل يوحنا: رحلة الإيمان

«ابنك حي»
(٤: ٤٦-٥٤)

تأليف: بروس مكلارتي

في نهاية أحد الاسابيع من خريف عام ١٩٧٧م، قام عدد من الطلبة برحلة بالسيارات من مدينة سيرسي بولاية أركنساس إلى مدينة فلورنس بولاية ألباما الأمريكية لورشة عمل ربح النفوس. من بين كل الأشياء الجميلة التي سمعتها واختبرتها في عطلة ذلك الاسبوع، لم يكن هناك شيء أقوى من محاضرة ألقاها أوتيس قيتوود، وكان مبشراً متقدماً بالسن ومثالاً حياً لكل الذين كانوا هناك. لقد طُلب منه أن يتحدث عن المشقات والمحن التي اختبرها لأكثر من ثلاثين سنة في حقل التبشير. وقد تحدث في تلك الأمسية عن الوحدة والاعتراض من قبل الإخوة والاضطهاد من قبل الحكومات وموت الاقرباء والزملاء، ومشقات أخرى احتملها من أجل خدمة المحبة لنشر الإنجيل.

لقد سحرنا الاخ قيتوود ونحن نصغي إليه يسرد ذكريات حياته التي قضاها في العمل التبشيري في أوروبا، ولكن ما أتذكره أكثر هو النص الذي استخدمه في تلك الأمسية: إنجيل يوحنا ٤: ٤٦-٥٤. كان تشارلز كويل مديراً لمعهد الكتاب المقدس العالمي ومديراً للمحاضرات التي فيها تم دعوة الأخ قاتوود لالقاء كلمة وكان عنوان الموعظة هو: «السير في الليل» وقد شكلت أساسا للطريقة التي نظرتُ بها الى كثير من الصعوبات في حياتي منذ ذلك الحين. وقد شاركتُ هذا النص مع أناس في دراسات خاصة للكتاب المقدس وقرأتُها للأُسر في مقابر عندما كانوا يواجهون أصعب أيام حياتهم. انه نص جميل وقوي ومتحدي ومعزي، وهو أساس هذا الدرس.

الآب اليائس (٤: ٤٦ و٤٧)

بعد لقائه مع السامريين، رجع يسوع إلى الجليل حيث كان يزداد شهرة. وعندما رجع إلى قانا المكان الذي كان قد أجرى فيه أولى آياته، قابله رجل من حاشية الملك، جاء هذا الرجل إلى يسوع متوسلاً من أجل انقاذ حياة ابنه. الكلام بين هذا الرجل ويسوع هو نموذج آخر لنا في رحلة الإيمان.

نحن لا نعرف بالضبط المنصب الذي كان يحتله هذا الرجل سوى انه من حاشية الملك. ولكننا نعلم بانه لا بد كان من ضمن رجال ادارة هيرودس، رئيس الربع الذي يعرف بهيرودس أنتيباس، الوالي الشرير، الذي أصدر أمراً بقطع رأس يوحنا المعمدان. وبسبب الصلة التي كانت بينه وبين الذين كانوا بالسلطة، يمكن ان نقول بانه كان إنساناً ذو نفوذ كبير.

ربما كانت قانا المكان الذي قابل فيها هذا الموظف يسوع تبعد بحوالي عشرين ميلا عن كفرناحوم حيث كان الصبي على فراش المرض.[1] عندما سمع هذا الرجل بان يسوع كان في قانا، ذهب إلى هناك ليطلب منه أن يرجع معه إلى كفرماحوم ويشفي ابنه الذي «كان مشرفاً على

[1] أنظر الخريطة على صفحة (٥٠).

الموت » (٤: ٤٧). لا أعلم الكثير عن هذا الرجل، ولكنني أعرف انه عندما يكون لآب ما طفلاً مريضاً جداً. لا تكون هناك أهمية لأي شيء في العالم!

قبل عدة سنوات أصيبت طفلتي بالتهاب في الدم استغرق شفائها وقتا. أخفقت جرعات متكررة من المضادات الحيوية في علاجها، فطلب مني طبيب الأطفال في أحد الأيام أن نأخذها إلى المستشفى لسحب الدم واجراء المزيد من الفحوصات. كنا نعلم بانهم كانوا يبحثون عن مرض اللوكيميا رغم انه لم يخبرنا أحد بذلك. كان ذلك اليوم أطول أيام حياتي. كل ما كان له أهمية في اليوم الذي كان قبله تحول إلى ما لا قيمة له. كل ما كان يهمني هو صحة ابنتي. أني احمد ربنا لان نتيجة الفحوصات كانت جيدة، ولكني لن أنسى الطريقة التي « زال » بها العالم في ذلك اليوم عندما كنت خائفاً على حياتها.

الآب الذي تم ذكره في هذا النص كان يعمل عند هيرودس، وهذا يعني بانه كان في منصب سياسي كبير. يشير إنجيل مرقس بان الهيرودسيين كانوا مشاركين في خطة لقتل يسوع. بعد الحدث الذي فيه شفى يسوع في السبت رجلاً كانت يده يابسة. نقرأ ما يلي: « فخرج الفريسيون والهيرودسيين وتشاوروا عليه لكي يهلكوه » (مرقس ٣: ٦). من المحتمل ان الأب المذكور في هذه القصة كان من بين الذين سعوا لقتل يسوع في وقت ما. ولكن كان ذلك من الناحية السياسة؛ ولكن عندما أشرف الطفل على الموت لم تكن للسياسة أهمية بعد.

وقعت حالة مشابهة لهذا في سنة ١٩٨١م عندما أُطلقت النار على رونالد ريغان الرئيس الأمريكي حينذاك وأُسرع به إلى المستشفى (وكان هو من الحزب الجمهري). وتم ادخاله على عجل إلى غرفة العمليات. وعندما رأى الرئيس طبيب الجراح الخاص به، سحب كمامة الأوكسجين وسأله بدعابة اسطورية: « هل أنت جمهوري؟ » واستجاب الطبيب بوضع كمامة الاوكسجين في مكانها وقال: « يا سيدي الرئيس، اليوم كلنا جمهوريين! »، عندما تكون الحياة في خطر، تتلاشي الفروقات الطبقية والحزبية.

يجب توضيح نقطة أخرى عن طلب الآب قبل ان نتقدم في هذا النص. عندما جاء إلى يسوع، « سأله » ان يأتي ويشفي ابنه. تقول هذه الآية في اللغة اليونانية: « وكان يطلب منه » ان يأتي ويشفي ابنه. أي في صيغة فعل ماضي ناقص مما يشير إلى استمرار العمل في وقت مضى. أي بعبارة أخرى، كان هذا الموظف وربما يعتبره الناس رجلاً مهماً يتوسل إلى يسوع لكي يخلص حياة ابنه! كان هذا آخر رجاءه، ولهذا جرد نفسه من كبرياءه وتوسل إلى هذا المعلم اليهودي المثير للجدل والذي لا يملك أموالاً من أجل حياة طفله.

المخلص المهتم (٤: ٤٨-٥٠)

عندما سمع يسوع طلب أبو الولد، كانت استجابته الآولى هي توبيخ الذين كانوا واقفين هناك. قال: « لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب » (٤: ٤٨). وهنا نصطدم مرة أخرى بإجابة يسوع غير المتوقعة. كنا نتوقع ان نرى لطف وتأكيد ورجاء من الرب. ولكن بدلاً من ذلك، نجد التوبيخ. نرى يسوع مرة أخرى يحرك الناس إلى الإيمان ويصر ان لا يكتفوا باشياء غير الحقيقية.[٢] ان توبيخ يسوع هذا يجب ان يجعلنا نفكر في ما نفعله بحجة مساعدة الآخرين. هل نحن مكرسين انفسنا للسعي أكثر وراء الحق أم السعي وراء سبل الراحة؟ هل ان اهتماما الأكثر يجعل الناس يؤمنون أم بانزعاجهم العاطفي؟ ينذرنا هنري نوين بالكلمات التالية:

> خادم {الرب} ليس طبيباً عمله يكون ازالة الألم ...قد تكون المهمة الأساسية للخادم هي ان يبعد الناس عن المعاناة لأسباب غير صحيحة. يتألم أناس كثيرون بسبب افتراضهم لشيء كاذب يكونون قد بنوا

[٢] أنظر يوحنا ٢: ٢٣ و٢٤؛ ٦: ٢٦.

حياتهم عليه. وهو انه لا يجب ان يكون هناك خوف أو وحدة، لا ارتباك أو شك. ولكن يمكن التعامل بهذه الآلام بطريقة إبداعية عندما يتم فهمها كجروح متممة لحالتنا البشرية. إذاً الخدمة هي عمل مجابهة. لا يسمح للناس ان يعيشوا بوهم الحياة الخالدة والكاملة. ويذكر آخرون بانهم بشر ومنسحقين، ولكن أيضاً بمعرفة هذه الحالة يبدأ التحرير.[٣]

أعتقد بان يسوع كان يهتم جداً بأمر الآب الذي كان يتألم وابنه المشرف على الموت، ولكني أعتقد أيضاً بانه كان يهتم أكثر عن علاقتهم مع الله. أراد يسوع للطفل ان يشفى وان لا ينسحق قلب الأب، وأراد أكثر للناس الضالين ان يخلصوا. رأى يسوع بان الحاجة الأكبر في حياة الرجل الذي كان من حاشية الملك لم تكن النجاة من الموت الجسدي؛ بل كان الله! ورأى يسوع أيضاً بان موت الابن الذي كان ممكناً قد جعل هذا الرجل يدرك حاجته العظمى.

قبل متابعة القصة، يجب علينا جميعنا أن نسأل أنفسنا عما هي حاجتنا الأكبر في هذه اللحظة. ما هو الشيء الذي يدور بفكرك الآن؟ مع ان هذا يهمك، إلا انه قد لا تكون حاجتك الأعظم. ولكن ربما يكون هو الشيء نفسه الذي يساعدك لتدرك حاجتك الأعظم – ان تفتح قلبك لله!

قاطعت انتهار يسوع للمشاهدين مثابرة الآب في إلتماسه قائلا: «يا سيد، انزل قبل ان يموت ابني!» (٤: ٤٩). قد يكون هناك شيئا من الأهمية في الطريقة التي تكلم بها الرجل في هذه اللحظة. وقد استخدم هنا الكلمة اليونانية «پايديون παιδιον» أي «ولدي الصغير» عوضاً عن الصيغة الشاملة «هيوس υιος» أي «ابني» التي تظهر في الآيتين ٤٦ و٤٧. لا توجد هنا دلالة على وجود منصب. هذه صورة مؤسفة لرجل منسحق يتوسل من أجل حياة «ابنه الصغير».

عندما أتت الكلمات الشافية أخيراً، كانت بسيطة ومباشرة. قال يسوع: «اذهب! ابنك حي!» (٤: ٥٠). لم يحتج يسوع أن يمشي عشرين ميلاً {إلى كفرناحوم} لكي ينجز مهمته. بل تكلم فقط، فشفى الولد.

ليلة الإيمان (٤: ٥٠-٥٤)

بكلمة من يسوع انتهى فزع الآب – أو هل انتهى؟ ما زال هناك عشرون ميلاً يجب ان يقطعها قبل ان يرى بنفسه ان كان ولده الصغير قد شفى. ولسبب ما (ربما لأن الوقت كان متأخراً[٤] أو لأن الرجل كان منهكاً) لم يستطع الرجوع إلى البيت في تلك الليلة. لم يقابل عبيده حتى اليوم الثاني عندما أخبروه بان ابنه حياً بالحقيقة ومعافي. وعندما سأل في أية ساعة تعافى، أجابوه: «أمس في الساعة السابعة تركته الحمى» (٤: ٥٢). فعلم حالاً بان ذلك كان الوقت نفسه الذي قال فيه يسوع «ابنك حي!»

التفاصيل الرائعة في هذه القصة، وفي القصة التي تحدث عنها أوتيس قيتوود في موعظته القوية في سنة ١٩٧٧م هي ان أبو الولد قضى ليلة بين الوعد بشفاء ابنه وبرهان تلك المعجزة. «فآمن الرجل بالكلمة التي قالها له يسوع وذهب». صورة تلك الليلة في حياة الآب هي صورة قوية عن الوقت الذي نعيش فيه جميعنا الآن؛ نتحمل الليل بين الوعد وتتميمه.

شيء عن الليل يجعل المشاكل والمخاوف تبدو أكثر وعيداً عما تكون عليه في ضوء النهار. يتم تمثيل أفلام الرعب دائماً في الظلام لأننا نرتعب في الظلام. لا أسمح لنفسي ان أفكر في المشاكل الكبيرة في الظلام. إذا لم استطع النوم، أو إذا استيقظت في الليل بسبب التفكير بمشكلة ما، أقوم واذهب إلى المطبخ حيث اشعل النور وافكر كيف اتعامل مع المشاكل بعينين مفتوحتين!

بما ان خادم الملك هذا كان يبتعد عشرين ميل عن منزله، فيمكن الاعتقاد بانه قضى

---

[٣] مقتبس من كتاب هنري جي. م. نوين بعنوان «الشافي المجروح».

[٤] «الساعة السابعة» هي ساعة ١ مساءاً بالتوقيت اليهودي أو ساعة ٧ مساءاً بالتوقيت الروماني.

الليلة يفكر ويتمنى الأفضل مصارعاً مخاوفه. اكيد انه كان متفائلا لحظة ومتشائما في وقت اخر. نحن لا نعرف اسمه، ولكن كلنا نعرفه من جانب او اخر؛ لأننا جميعنا نعلم صراعات الليل بين الوعد والتتميم.

ماتت كلوديت جونز وهي امرأة مسيحية رائعة في العاشر من نوفمبر عام ١٩٩٤م، بعد صراع طويل مع مرض السرطان. واجهت مرضها وآلامها بتواضع وشجاعة مذهلة. اصبح زوجها جيري وأولادهما – مع اصدقائهما وآلاف من الناس الذين لم يلتقوهاً – مادحين الطريقة العظيمة التي واجهت بها المرض والموت. تحدثت مع أمها جورجيا دابويس هاتفيا في الاسبوع الذي سبق مماتها. وإذ كانت تعلم بانها ستموت قريباً، قالت كلوديت لأمها: « أنا وأبي سنكون في انتظارك ». هذا هو الوعد الذي وعد به الله ابناءه. بالنسبة لكلوديت اصبح الإيمان الآن عيان، بينما بقى لنا نحن الباقين ان نحتمل الليل بين الوعد وتتميم ذلك الوعد في السماء.

تكون خبرة الآب المهتم بابنه كنموذج لجميعنا، ونحن ننمو في الإيمان بيسوع. في بداية القصة، كان لهذا الآب ما يكفي من الإيمان بيسوع ليأتي إليه ويتوسل لأجل حياة ابنه. وبعد ما تكلم مع يسوع، آمن بالكلمة التي قالها له يسوع (٤: ٥٠). وأخيراً عندما سمع من شهود عيان بان ابنه حي، آمن هو وبيته كله (٤: ٥٣). لاحظ تطور إيمانه عندما تحرك من رجاء يائس إلى الثقة. الإيمان كما تم اظهاره هو عملية صعبة ومرهقة من ثقة تبنى على ثقة.

الخلاصة

حقيقة واحدة أخيرة يجب التشديد عليها قبل ان نختتم قصة الرجل الرجل من حاشية الملك ويسوع. ما تراه هناك سيوقظ رجاءك ويحركك تجاه الثقة.

أولاً: أنظر وجه الحق. أظهر يسوع في هذا اللقاء بانه لا يسمح لأي منا ان يعيش بكذب مريح. يوجد شيء أكثر أهمية من تحررنا من الألم وهو: علاقتنا مع الله. نحن كمسيحيين لا يجب ان نسمح اخذ مجتمعنا بالحياة الخالية من الألم ان يحجب تعهدنا للحق. أهم مسألة بالنسبة لكل الناس هي خلاص نفوسهم. وضع يسوع هذا في المقدمة في كل الزمان؛ يمكنك ويمكنني ان نفعل الشيء نفسه.

ثانياً: أنظر وجه العطف. أظهر يسوع على نحو ثابت بانه لأن « الكلمة صار جسداً »، أمكن له أن يصف نفسه بحالة الإنسان. علم يسوع بانه بمفهوم الأبدية كان شفاء الصبي شيء مؤقت. في وقت لاحق وفي يوم ما سيموت الولد. بمفهوم الأبدية لا أظن بانه يكون هناك فارقاً كبيراً، ولكن يحزن البشر جداً عندما يموت أحد من أحباءهم. عرف يسوع الحقيقة المرة في حزن أبو الولد وعمل بحنان ليشفي له ابنه.

أخيراً: أنظر وجه الرجاء. لم يعد يسوع أبداً بان يشفينا من كل أمراضنا، ولكنه وعدنا بانه يذهب ويعد لنا مكاناً (يوحنا ١٤: ٢). لم يعد بان يسهل لنا كل امورنا، ولكنه وعد بان يكون معنا دائماً (متى ٢٨: ٢٠). لقد دعانا لنتكل عليه ونتبعه خلال عتمة الليل المخيفة في حياتنا. صرح يوحنا بان يسوع يستحق الثقة به، ونحن نؤمن بذلك!

هل تسكن في السرداب؟

في لوحة هولمن هانت المشهورة باسم « نور العالم »، نرى المزلاج بداخل الباب. عندما كان أحد المنتقدين يتفرج على اللوحة، لفت انتباه الرسام إلى المزلاج المفقود. فقال الرسام بان الباب يرمز إلى الرجل الذي ينبغي ان يفتح نفسه عندما يقرع المسيح.

عندما رأي ولدا صغيرا اللوحة، سأل أبوه قائلاً: « يا ابي، لماذا لا يسمحوا ليسوع بالدخول؟ » فأجاب الآب « لست أدري ». وبعد لحظة قال الولد: « أنا أعلم يا ابي لماذا لم يسمحوا ليسوع بالدخول. لانهم يسكنون في السرداب ولم يستطيعوا سماعه وهو يقرع الباب ».

بقلم جوزيف أ. سميث

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧